

نفحات القرآن

[78] (الأوّل) و (الآخر) و (الظاهر) و (الباطن) إلّا أنّها غير متنافية ويمكن جمعها في مفهوم الآية . فتارةً قالوا : إنّ الأوّل قبل وجود أي شيء وهو الآخر بعد هلاك كلّ شيء ، ودلائل وجوده ظاهرة ولا يمكن إدراك باطن ذاته . وتارةً قالوا : هو الأوّل ببرّه حيث هدانا ، والآخر بعفوه حيث يقبل التوبة ، والظاهر بإحسانه وتوفيقه عند طاعته والباطن في ستر عيوب العباد عند المعصية (الأوّل ببرّه إذ هداك والآخر بعفوه إذ توبتك ، والظاهر بإحسانه وتوفيقه إذا أطعته ، والباطن بستره إذا عصيته) (1) وقد ورد أنّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كان يقول في دعائه : (اللهم أنت الأوّل فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء وأنت الباطن فليس دونك شيء) (2) . على أيّ حال فإنّ الآية أعلاه إضافةً إلى إثباتها – خلافاً لما تعتقده الصوفية – إستقلالية الخالق عن المخلوق ، والمخلوق عن الخالق تبين هذه الحقيقة وهي أنّ ذاته المقدّسة غير متناهية ومطلقة ، أي هو وجود بلا عدم ، ولو أنّنا تدبّرنا حقيقة الوجود جيّداً ونزّهناه من العدم فسوف نصل إلى ذاته المقدّسة ، وهذا جوهر برهان الصديقين وروحه . ومن البديهي أنّ الموجود المحدود يكون موضعه إمّا في البداية أو النهاية ، وإمّا في ظاهر الأشياء أو باطنها ، واتّصافه سبحانه بأنّه الأوّل والآخر والظاهر والباطن هو لكونه وجوداً غير متناه . هو نور العالم في الآية الخامسة والأخيرة نقرأ في جملة قصيرة وغزيرة المعنى : (إنّ نور السموات والأرض) .

1 – مجمع البيان ، تفسير الميزان ، تفسير الفخر الرازي ،
روح البيان . 2 – تفسير القرطبي : 9/6406 .